ثلاث ليال فى القلعة المسحورة

حَدَثَ فِى قَدِيمِ الزَّمَانِ فِى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ أَنْ أَتَى الصَّيْفُ مَرَّةً شَدِيدَ الْوَطْأَةِ ، وَلَمْ تَنْزِلْ فِيهِ أَمْطَارٌ ، تَجِفُّ الزَّرْعُ . وَلَمَّا أَتَى الْخَرِيفُ أَتَى مَعَهُ الْبُؤْسُ وَالْفَقْرُ لِلْمُزَارِعِينَ . وَهَامَ كَثِيرُونَ فِى جِهَاتِ الْمَمْلَكَةِ طَلَبًا لِلْعَمَلِ وَالْقُوتِ . وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْفَلَّاحِينَ شَابٌّ شُجَاعٌ وَسِيمُ الطَّلْعَةِ ، يُسَمَّى طَارِقًا ، فَقَدَ وَالِدَيْهِ ، وَفَقَدَ عَمَلَهُ فِى إِحْدَى الْمَزَارِعِ ، بَعْدَ أَنْ عَبَثَ بِهَا الْجَفَافُ . وَفِى أَثْنَاءِ تَجْوَالِهِ وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ غِرْنَاطَةَ ، وَقَدْ آلَمَهُ الْجُوعُ . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنَ النُّقُودِ مَا يُسَاعِدُهُ عَلَى الْمَبِيتِ فِى أَحَدِ الْفَنَادِقِ . فَاتَّخَذَ مَأْوًى فِى قَلْعَةٍ عَرَبِيَّةٍ مَهْجُورَةٍ . وَغَلَبَهُ النُّعَاسُ فَنَامَ . وَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَيَدٌ تُوقِظُهُ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَرَأَى يَدًا تَحْمِلُ شَمْعَةً ، وَتُشِيرُ إِلَيْهِ . فَتَبِعَهَا حَتَّى وَصَلَ دَاخِلَ الْقَلْعَةِ إِلَى بَهْوٍ عَظِيمٍ فِى وَسَطِهِ مَائِدَةٌ فَاخِرَةٌ عَلَيْهَا مَا لَذَّ وَطَابَ مِنَ الطَّعَامِ . فَأَكَلَ هَنِيئًا ، وَشَرِبَ مَرِيئًا . وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ طَعَامِهِ أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْيَدُ ، فَتَبِعَهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى حُجْرَةِ نَوْمٍ فَاخِرَةٍ . فَخَلَعَ مَلَابِسَهُ الْبَالِيَةَ ، وَارْتَدَى جِلْبَابَ نَوْمٍ حَرِيرِيًّا وَجَدَهُ فِى الْحُجْرَةِ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَلَابِسِ الْفَاخِرَةِ . ثُمَّ نَامَ نَوْمًا عَمِيقًا . وَعِنْدَ مَا دَقَّتْ أَجْرَاسُ غِرْنَاطَةَ فِى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، جَاءَتْهُ الْيَدُ ، وَأَيْقَظَتْهُ . ثُمَّ سَمِعَ صَوْتًا عَذْبًا يَقُولُ : « إِنَّكَ شُجَاعٌ يَا طَارِقُ ! فَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ تَجَاسَرَ ، وَتَبِعَ يَدِى ! فَهَلْ لَكَ أَنْ تُبَرْهِنَ عَلَى شَجَاعَتِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَتُنْقِذَ فَتَاةً سَيِّئَةَ الْحَظِّ مِنْ سِحْرِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ؟ » فَقَالَ طَارِقٌ : « وَمَاذَا يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ الصَّوْتُ قَائِلًا : « يَجِبُ أَنْ تَبْقَى فِى هَذَا الْفِرَاشِ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَيَجِبُ أَلَّا تَتَحَرَّكَ أَوْ تَصِيحَ مَهْمَا حَدَثَ لَكَ » . فَقَالَ طَارِقٌ : « حَسَنٌ ! وَسَأَرَى إِذَا كَانَ يُمْكِنُنِى احْتِمَالُ ذَلِكَ » .

وَحَدَثَ فِى اللَّيْلَةِ الْأُولَى أَنْ أَحَاطَ بِسَرِيرِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَشْبَاحِ ، تَحْمِلُ هَرَاوَاتٍ ، وَأَخَذَتْ تَضْرِبُهُ ضَرْبًا مُبَرِّحًا ، حَتَّى هَشَمَتْ عِظَامَ جِسْمِهِ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ فِى الصَّبَاحِ إِلَّا وَالْيَدُ تُدَلِّكُ جِسْمَهُ بِدِهَانٍ عَجِيبٍ ، أَعَادَ إِلَيْهِ عَافِيَتَهُ كَمَا كَانَ . ثُمَّ اخْتَفَتِ الْيَدُ بَعْدَ أَنْ تَرَكَتْ بِجَانِبِ السَّرِيرِ شَيْئًا مِنَ الشَّرَابِ . وَفِى اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ عَادَتِ الْأَشْبَاحُ ، وَأَخَذَتْ تَضْرِبُهُ بِنِصَالٍ حَادَّةٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ أَوْ يَصِحْ . وَفِى الصَّبَاحِ جَاءَتْهُ الْيَدُ مَرَّةً ثَانِيَةً بِبَعْضِ الْأَشْرِبَةِ ، وَدَهَنَتْ جُرُوحَهُ بِبَلْسَمِ (مَرْهَم) شَفَاهُ فِى الْحَالِ . وَفِى اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ كَانَتِ الْأَشْبَاحُ أَشَدَّ قَسْوَةً ، فَقَطَّعَتْ جِسْمَهُ تَقْطِيعًا ، وَلَكِنَّهُ تَحَمَّلَ هَذَا الْعَذَابَ ، وَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَوْ يَصِحْ . وَعِنْدَ الصَّبَاحِ رَأَى بَدَلَ الْيَدِ ، فَتَاةً بَارِعَةَ الْجَمَالِ تَحْمِلُ قِدْرًا مِنَ الْمَاءِ ، فَغَسَلَتْ جِسْمَهُ مِنْهُ ، فَعَادَ صَحِيحًا كَمَا كَانَ . ثُمَّ إِنَّ

طَارِقاً لَبِسَ مَلَابِسَ فَاخِرَةً ، وَخَرَجَ إِلَى الْبَهْوِ الْكَبِيرِ ، وَجَلَسَ إِلَى مَائِدَةِ الطَّعَامِ مَعَ الْفَتَاةِ ، وَقَدْ أَذْهَلَهُ جَمَالُهَا ، إِذْ لَمْ يَرَ مَثِيلاً لَهَا فِي حَيَاتِهِ . فَقَالَ : « لَا أَظُنُّ أَنَّ سَيِّدَتِي أَسْبَانِيَّةٌ . » فَقَالَتْ : « كَلَّا ، أَنَا ابْنَةُ سُلْطَانِ مَرَاكِشَ ، وَالْآنَ وَقَدْ زَالَ السِّحْرُ ، فَيَجِبُ أَنْ أَعُودَ إِلَى قَصْرِ وَالِدِي ، فَاتْبَعْنِي ، تَجِدْنِي » . وَفِي لَمْحِ الْبَصَرِ اخْتَفَتْ . وَوَجَدَ طَارِقٌ نَفْسَهُ حَيْثُ كَانَ فِي رُكْنٍ مَهْجُورٍ فِي فِنَاءِ الْقَلْعَةِ بِمَلَابِسِهِ الرَّثَّةِ الْبَالِيَةِ .

ولبس طارق ملابس فاخرة وخرج الى البهو الكبير وجلس الى مائدة الطعام مع الفتاة

وَصَمَّمَ طَارِقٌ أَنْ يَتْبَعَهَا . وَلَكِنَّهُ كَانَ مُعْدِماً ، فَسَارَ عَلَى قَدَمَيْهِ يَقْطَعُ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةَ ، وَيَقُومُ فِي الطَّرِيقِ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ لِيَكْتَسِبَ مِنْهَا قُوتَهُ وَحَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةَ . وَلِذَلِكَ مَرَّ زَمَنٌ طَوِيلٌ ، وَالْأَمِيرَةُ تَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَئِسَتْ مِنْ لِقَائِهِ . وَذَاتَ يَوْمٍ ، بَيْنَمَا كَانَتْ مَعَالِمُ الْأَفْرَاحِ قَائِمَةً اسْتِعْدَاداً لِزَوَاجِهَا ، لَمَحَتْ مِنْ شُرْفَةِ قَصْرِهَا طَارِقاً نَفْسَهُ وَاقِفاً بِجَانِبِ السُّورِ كَئِيباً حَزِيناً فِي أَسْمَالِهِ الْبَالِيَةِ . فَنَزَلَتْ فِي الْحَالِ ، وَقَالَتْ لِخَطِيبِهَا الْأَمِيرِ : « مُنْذُ مُدَّةٍ حَدَثَ أَنِ افْتَقَدْتُ مِفْتَاحَ صُنْدُوقِ جَوَاهِرِي ، فَحَصَلْتُ عَلَى مِفْتَاحٍ جَدِيدٍ . وَالْآنَ قَدْ وَجَدْتُ الْمِفْتَاحَ الْقَدِيمَ . فَأَيُّهُمَا أَسْتَعْمِلُ ؟ » فَقَالَ الْأَمِيرُ : « يَجِبُ أَنْ تَسْتَعْمِلِي الْمِفْتَاحَ الْقَدِيمَ . » فَنَادَتْ طَارِقاً ، وَقَدَّمَتْهُ لِلْأَمِيرِ ، قَائِلَةً : « هٰذَا هُوَ الْمِفْتَاحُ الْقَدِيمُ الَّذِي أَعْنِيهِ . فَهٰذَا الْفَتَى الْبَاسِلُ هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنَ الْقَلْعَةِ الْمَسْحُورَةِ . وَقَدْ شَاءَتْ إِرَادَةُ اللهِ أَنْ يَكُونَ زَوْجِي » . وَكَانَ الْأَمِيرُ كَرِيماً ، فَبَارَكَهُمَا وَقَدَّمَ لَهُمَا هَدِيَّةً ثَمِينَةً ابْتِهَاجاً بِهٰذَا الْقِرَانِ السَّعِيدِ .